

شاعر الفيل، هارون بن موسى الملتاني من القرن الثاني للهجرة

سيد رضوان علي الندوي

إنه شاعر سندي من أهل ملتان لانرى له ذكراً في الكتب الموجودة عن الشعر والشعراء بين أيدينا، ولا ورد ذكره في فهرست ابن النديم. ولكن أورد الجاحظ وبعده المؤرخ المسعودي شعره عن الفيل منسوباً إليه، وكذلك الرحالة أبو دلف مسعر بن مهلهل (معاصر المسعودي الأصغر) ولكن اسم أبيه عنده عبدالله كما ذكره صاحب "رجال السند والهند" (ص ٢٦٣) ورجحه. وهو خطأ لأنه هارون بن موسى عند النويري^(١) أيضاً.

ف عند الكلام على الفيلة وبعد مقدّمة طويلة، يقول الجاحظ: "وقد جمع هارون مولى الأزدي الذي كان يرد على الكميث ويفخر بقحطان، وكان شاعر أهل المولتان، ولا أعرف من شأنه أكثر من اسمه وصناعته. وقد قال في صفات الفيل أشعاراً كثيرة"^(٢).

ثم يورد الجاحظ برواية صفوان بن صفوان الأنصاري من رواة داؤد بن يزيد^(٣) أبياتا طريفة في وصف دقيق لفيل دخل معه في معركة بواسطة سنور وحشي (Wild Cat) وانهزم إثرها الفيل والفيال، والأبيات هي:

أليس عجيبا بأن خلقه	له فطن الإنس في جرم فيل
وأظرف من قشة زولة	بحلم يجعل عن الخنثليل ^(٤)
وأوقص مختلف خلقه	طويل النيوب قصير النصيل
ويلقى العدو بناب عظيم	وجوف رحيب وصوت ضئيل
وأشبه شيء إذا قستَه	بخنزير برّ وجاموس غيل
تنازعه كل ذي أربع	فما في الأنام له من عديل
ويخضع لليث ليث العرين	بأن ناسب الهرّ من رأس ميل
ويعصف بالبر بعد النُمور	كما تعصف الريح بالعنديل
وشخص ترى يده أنفه	فإن وصلوه بسيف صقيل
وأقبل كالطود هادي الخميس	بهول شديد أمام الرعيل
ومرّ يسيل كسيل الأتيّ	بخطوٍ خفيف وجرمٍ ثقيل
فإن شهته زاد في هوله	شناعة أذنين في رأس غول
وقد كنت أعددت هراً له	قليل التهيّب للزندبيل
فلما أحسّ به في العجاج	أتانا الإله بفتح جميل ^(٥)
فطار وراغم فيّاله	بقلب نجيب وجسم نبيل
فسبحان خالقه وحده	إله الأنام ورب الفيول ^(٦)

فهذه الأبيات من روائع الشعر ونادره في وصف الفيل وصفا تصويريا بليغا قلّ نظيره. وقد ذكر بعد ذلك الجاحظ قصة هذه الأبيات على لسان نفس الراوي السابق. وملخصها أن هارون حارب أحد خصومه الذي قاد فيلا عظيما. وقد ربط في خرطومه السيف. وكان هارون خبأ له هراً (وحشياً؟)، فلما قرب منه الفيل رمى هارون بالهراً في وجه الفيل. فوّلّى هاربا وتساقط كل من كان فوقه وكبر المسلمون. وكان ذلك سبب هزيمة العدو^(٧).

وقد ذكر الجاحظ في فقرة خاصة بأن الفيل يخاف من الهرّ (القط)، وكذلك المسعودي. ويتضح من نص الجاحظ^(٨) أن هارون هذا كان فارسا شجاعا. وقد قال هذه الأبيات بعد معركة واجه فيها أعداءه الذين كانوا يحاربون على الفيلة وبالفيلة، وبالطريقة المذكورة هناك، وهي طريقة كانت متبعة عند الهندوس قديما.

ويزيدنا معرفة بشخصية هارون بن موسى هذا، المؤرخ المسعودي (٣٤٧هـ) الذي أورد هذه الأبيات عند ذكر الفيل وقال:

"كان رجل بالملتان من أرض السند يدعى هارون بن موسى مولى الأزدي، وكان شاعرا شجاعا ذا رياسة في قومه ومنعة بأرض السند مما يلي أرض الملتان، وكان في حصن له، فالتقى مع بعض ملوك الهند. وقدمت الهند أمامها الفيلة، فبرز هارون بن موسى أمام الصفّ وقصد لعظيم من الفيلة وقد خبأ تحت ثوبه سنورا. فلما دنا

في حملته من الفيل خلى القط عليه، فولى الفيل منهزماً بذلك الهراً.
وكان ذلك سبب هزيمة الجيش وقتل الملك وغلبة المسلمين
عليهم" (٩).

ويبين لنا نصّ المسعودي هذا، الأمور التالية عن شخصية هارون بن
موسى:

١- أن هارون هذا من موالى الأزد كما جاء عند
الجاحظ.

٢- أنه كان شاعراً شجاعاً من أهل الملتان كما جاء عند
الجاحظ أيضاً.

٣- أنه كان أميراً من الأمراء في بلدة ذات حصن، قرب
ملتان.

٤- أن هذه البلدة كانت على حدود الهند، وهاجمه بعض
"راجوات" الهند (الأمراء الهندوس) الذين جاءوا بجيش أمامه فيل
مدرب للأغراض الحربية.

٥- كان هارون يقود المسلمين في المعركة التي جرت
بين الطرفين ولجأ إلى حيلة لهزيمة الفيل بواسطة سنور برّي، كان قد
درّبه لمهاجمة الأعداء، والمعلوم أن الفيل يخاف من السنور البرّي
الذي هو سريع القفز والهجوم على صيده، فكان الانتصار في هذه
المعركة لهذا الأمير الفارس البطل الذي كان شاعراً أيضاً. وفي

قصيدة أخرى أوردها الجاحظ بعد ذلك على لسان نفس الراوي صفوان بن صفوان الأنصاري، لهارون نفسه، ذَكَرَ تلك القصة نثرًا ونظمًا على النحو التالي: قال: أنشدني هارون بن فلان المولى، مولى الأنصار قصيدته التي ذكر فيها خروجه في الحرب إلى فيل في هذه الصفة، فمشى إليه، فلما كان حيث يناله السيف وثب وثبة أعجله بها عن الضربة، ولصق بصدر الفيل، وتعلق بأصول نايه - وهما عندهم قرناه - فجال به الفيل جولة كاد يحطمه من شدة ما جال به، وكان رجلا شديد الخلق، ورابط الجأش. قال: "فأعتمدت وأنا في تلك الحال - وأصول الأنياب جوف - فانقلعا من أصلهما، وأدبر الفيل، وصار القرنان في يدي، وكانت الهزيمة، وغنم المسلمون غنائم كثيرة. وقلت في ذلك" (١٠).

مشيت إليه وأدعًا متمهلاً	وقد وصلوا خرطومَه بحُسامٍ
فقلت لنفسي إنه الفيل ضاربٌ	بأبيض من ماء الحديد هُدامٍ
فإن تنكلي عنه فعذركِ واضحٌ	لدى كلِّ منحوب الفؤادِ عبامٍ
وعند شجاع القوم أكلفُ فاحمٌ	كظلمة ليلٍ جُلَّتْ بقتامٍ
فناهشته حتى لصقتُ بصدره	فلما هوى لأزمتُ أيَّ لزامٍ
وعُذتُ بقرنيه أريدُ لبانهُ	وذلك من عاداتِ كلِّ مُحامي
فجال وهجيره صوتُ مُحضرمٍ	وأبتُ بقرني يذبلٍ وشمامٍ (١١)

فهي من غرر الشعر، تصوّر معركة الشاعر الفارس البطل مع
الفيل صاحب السيف الصارم المربوط بخرطومه، واستئصال نابيه
الكبيرين بخفة وشجاعة خارقة. وقد صور هذه المعركة مع ذلك
الفيل في قصيدة أخرى بنفس الإبداع الفني:

ولما أتاني أنهم يعقدونَه

بقائم سيفِ فاضلِ الطولِ والعرضِ

مررتُ ولم أحفلِ بذلك منهمُ

إذا كان أنفُ الفيلِ في عفرِ الأرضِ

وحين رأيتُ السيفَ يهتزُّ قائماً

ويلمعُ لمعَ الصبحِ بالبلدِ المفضي

وصار كمخراق بكفِّ حزورٍ

يُصرفه في الرفعِ طوراً وفي الخفضِ

فأقبلَ يفري كل شيءٍ سما لهُ

وصرتُ كأني فوق مزلقةٍ دحضِ

وأهوى لجاري فاغتمتُ ذهولَهُ

فلاذ بقرنيه أخو ثقةٍ محضِ

فجالَ وجالَ القرنُ في كفِّ ماجدِ

كثيرِ مِرَاسِ الحربِ محتتبِ الخفضِ

فطاح وولّى هارباً لا يهيدهُ

رطانةُ هنديّ برفعٍ ولا خفضِ (١٢)

وبقى علينا تحديد زمن هذا الشاعر وهويته. ومن المؤسف أنّ الذين أوردوا بعض قصائده عن الفيل، وقاتله معه في بعض المعارك الحربية ضد ملك أو أمير من أمراء الهندوس على حدود ملتان الشرقية، مثل الجاحظ والمؤرخ المسعودي والأديب الموسوعي النويري - لم يلقوا أي ضوء كاشف على هاتين النقطتين. وكل ما ذكروه عنه أنه كان "مولى الأزدي"، وشاعرا شجاعا، وذا رياسة في قومه ومنعة بأرض السند ممايلي أرض الملتان. وكان في حصن له" على حدّ قول المسعودي الذي ذكرناه فيما سبق.

ومن تلك الإشارات المبهمة، وما ذكره الجاحظ من بعضها عند إيراد أبياته، نستطيع أن نحدّد زمنه ونعرف بعض ملامحه الشخصية. فقد أورد الجاحظ القصيدة الأولى - المذكورة آنفا على لسان صفوان بن صفوان الأنصاري - مُصرِّحاً بقول "إنه كان من رواة داؤد بن يزيد". وداؤد بن يزيد، اسمه الكامل: داؤد بن يزيد بن حاتم المهلبي. وكان واليا على السند من قبل الخليفة العباسي هارون الرشيد من سنة ١٨٤ إلى ٢٠٥هـ، ومات فيها، بعد عشرين سنة^(١٣) من ولايته. ومن المعلوم أن عاصمة الولاية في تلك الفترة كانت مدينة المنصورة، ولكنها كانت تضطرب بالفتن السياسية^(١٤)، فاتخذ داؤد بن يزيد مقرّه في الملتان^(١٥).

ومرة أخرى يقول الجاحظ عن الراوي صفوان الأنصاري أنه
 "كان عند داؤد بن يزيد بالملتان"،^(١٦) وبعد ذلك بقليل يذكر أن
 هارون بن الفلان المولى، مولى الأنصار (٥) أنشده قصيدته التي ذكر
 فيها خروجه في الحرب إلى فيل مدرّب للأغراض الحربية، كما ذكر
 عند سرد حكاية مقاتلته للفيل، بعد الكلام على لسان هارون هذا في
 صيغة المتكلم^(١٧). ونستنتج من ذلك كله أن هارون عاش في أواخر
 القرن الثاني^(١٨) للهجرة، بجوار ملتان في عهد داؤد بن يزيد. وربما
 كان من صغار الأمراء في بلدة شرقي ملتان، وقد تكون السكة^(١٩)
 التي ذكرها البلاذري عند ذكر فتوح محمد بن قاسم، وهي مجاورة
 لحدود الهند شرقاً، حيث ذكر المؤرخون والجغرافيون ورحالة
 العرب وجود إمارة باسم "قنوج" وهي بهوج رأى^(٢٠) على اسم ملك
 عظيم (رأى) كان يحكم سلطنته العظيمة من عاصمته قنوج في
 شمال الهند (بمقاطعة الإقليم الشمالي حالياً).

وأغلب الظن أن هارون بن موسى قد حارب ملك هذه البلدة
 (بهوج رأى) الذي هاجم بلدته على حدود ملتان الشرقية.

ومما يدلُّ على صلة هارون بن موسى بوالي السند القوي
 داؤد بن يزيد بن حاتم المهلبى، الأبيات التي أوردها الجاحظ في
 المرة الرابعة عند الكلام على "أهلي الفيل ووحشيها قائلًا: "وأنشد
 الكرمانى لشاعر الملتان" قوله:

فكنت في طلبي من عنده فرحا

كراكب الفيل وحشيا ومغتلما

ثم قال في هذه القصيدة:

قد كنت سعدت عن بغيور مغتربا

حتى لقيت بها حلف الندى حكما

قرم كأن ضياء الشمس سنته

لو ناطق الشمس ألفت نحوه الكلما^(٢١)

فشاعر الملتان في هذه الأبيات، لا شك هو هارون بن موسى الملتاني الذي اشتهر بقصائده عن الفيل، وقاتله لها. والمقصود من "حلف الندى" و "قرم" داؤد بن يزيد المهلبى وأما "البغيور" في البيت الثاني فالمعروف أنه لقب ملك الصين الذي يُكتب أيضا "فغفور" بالفارسية، وهكذا شرحه محقق كتاب الحيوان للجاحظ، وعلى هذا فمعناه أن هارون بن موسى وفد إليه من عند ملك الصين، ولكن هذا الأمر في غاية البعد، ونعتقد أن كلمة "بغبور" هذه محرفة من "فنزبور" وهي المدينة الشهيرة في مكران التي يرد ذكرها في كتب فتوح السند، وخاصة البلاذري، وكذلك في كتب الرّحالة والجغرافيين العرب فيما بعد في القرن الرابع الهجري وتعرف هذه المدينة في بلوجستان بـ "بنجكور" حاليا. ومن المعروف أن مكران كانت تابعة آنذاك لإقليم السند، فلعل هارون بن موسى قد جاء إلى

ملتان من تلك المدينة الثانية فى بلوجستان عند ما سمع عن استقرار
الأمر واستتاب الأمن فى المنصورة والملتان فى إقليم السند وأصبح
حاكما؟ لمدينة "سكة".

ومهما كان من الأمر فإن هارون بن موسى هذا كان من
أفذاذ شعراء السند لجمعه بين الفروسية النادرة، والشجاعة الخارقة
وبين الشعر الجزل، الرائع الوصف، الفصيح التعبير. ومن المؤسف أن
جامعي الشعر القدامى مثل محمد بن داؤد بن الجراح^(٢٢)، والحاجب
النعمان، وابن قتيبة، وصاحب الأغاني وغيرهم قد أهملوه، والجاحظ
هو الوحيد الذى حفظ بعض إنتاج هذا الشاعر الفحل فى كتاب
الحيوان، ونحمد الله أننا وفَّقنا إلى نبشه وبعثه من كتاب الحيوان،
الغريب التأليف والعظيم القدر.

هوامش

- ١- كذلك عند الجاحظ، الحيوان ٧/٧٥، وعند المسعودي، مروج الذهب ١٠/٢، وعند النويري، نهاية الأرب ٩/٣٠٥.
- ٢- الجاحظ، الحيوان ٧/٧٥-٧٦.
- ٣- وفي الأصل "مزيد" وهو خطأ وما أورده المحقق الفاضل عبدالسلام هارون في هامش رقم ٢ من نسخة ل داؤد بن يزيد، هو الصواب، وقد ورد هكذا صحيحا في ص ١١٤ من نفس الجزء، ولم ينتبه إليه المحقق المرحوم.
- ٤- القشه: الأثني من القروود. والزوله: الظريقة. والخنشليل: المُسِنَّ القوى من الإبل. وقد ورد محرفا الخنشليل عند غيره، والزنديل: تعريب "زنده بيل" الفارسية، بمعنى الفيل الضخم القوى والعنديل: هو العندليب.
- ٥- في مروج الذهب للمسعودي (١٠/٢): جليل وهو الأصوب كما يبدو.
- ٦- الجاحظ المرجع نفسه ٧٦-٧٧، وقد وردت هذه الأبيات في نهاية الأرب للنويري (٣١١/١٩)، كما وردت أيضا في مروج الذهب للمسعودي. وصرّح بأنه نقلها من كتاب الحيوان للجاحظ ولكنها عند المسعودي كثيرة الاختلاف في الكلمات والترتيب مع أخطاء الطبع الفاحشة أحيانا (أنظر مروج الذهب تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد) القاهرة، ١٩٦٥ ج م ص ١٠.
- ٧- الجاحظ نفس المرجع.
- ٨- الحيوان ٧/١٣٧، مروج الذهب ٩/٢.
- ٩- المسعودي: مروج الذهب، ١٠/٢.
- ١٠- الجاحظ المصدر السابق ٧/١١٤-١١٥.
- ١١- المصدر نفسه ص ١١٥ معانى الكلمات: الهُزام: القاطع. العَبَام: العي الأحمق. منخوب الفؤاد: جبان. الأكلف: الأسود المشوب بالكدره. القتام الغبار. اللبان: الصدر. والقرنان: عنى به ناييه. هجّيراه: أى دأبه وشأنه. المخضرم: الجهل المقطوع الأنف هنا. يذُبل وشمام جيلان، شبه الفيل الضخم بهما.

- ١٢- الجاحظ: الحيوان ١١٥/٧-١١٦ شرح الكلمات: المفصلي: الواسع. المخرق: منديل أو نحوه يلويه فيفزع به، حَزَوْر: الغلام الشاب القوي. شبه الخرطوم المربوط فيه السيف الذي يهزه الفيل يمينا ويسارا وفوق وأسفل كغلام في يده منديل يحركه بقوة لضرب عدوه. يشق، سما: ارتفع وشخص. أخو ثقة وماجد: يقصد به الشاعر نفسه. لا يهيده: لا تزعجه ولا يكثرث لها. رطانة هندي: كلام الفيال الهندي بلغته.
- ١٣- تاريخ الطبري ٥٨٠/٨.
- ١٤- تاريخ السند لأبي ظفر الندوي ص ١٤٨، ١٥٠ الطبعة الثانية في باكستان كراتشي، ١٩٨٩م.
- ١٥- الجاحظ كتاب الحيوان ١١٤/٧، والمنصورة الآن خراب في وسط إقليم السند في باكستان.
- ١٦- المصدر نفسه في الموضوع نفسه.
- ١٧- المصدر نفسه في الموضوع نفسه، يلاحظ أنه في ٧٥ ذكره مولى الأزدي، وهو الصواب.
- ١٨- الجاحظ، المصدر نفسه ص ١١٥.
- ١٩- ومن ثم لا يصح ما ذكره القاضي أظهر المبار كبورى في كتابه "رجال السند والهند" (ص ٢٦٣) بأنه كان من رجال السنة الثالثة.
- ٢٠- البلاذري فتوح البلدان ص ٥٢٨ (تحقيق المنجد، مصر ١٩٥٦م).
- ٢١- أبو ظفر ندوي المرجع السابق ص ١٤٨-١٥٠.
- ٢٢- الجاحظ، المرجع السابق، ١٨٠/٧.
- ٢٣- هو محمد بن داؤد الجراح المتوفى سنة ٢٩٦ هـ له كتاب الورقة في أخبار الشعراء.

